مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ
وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ
مُخۡلِصُونَ ١٣٩ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ
أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ
وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١

فوائد

سورة البقرة مدنية. نزلت في مدد شتّى، وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة إلاّ قوله تعالى: «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله». فإنه آخر آية نزلت من السماء. ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى. وآيات الربا أيضاً من أواخر ما نزل من القرآن[1] وكان خالد بن معدان يسمى البقرة فسطاط القرآن[2] قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهي[3] وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عبدالله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها[4] وعن ابن عمر قال: تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزوراً[5].

وقال العادّون: آياتها مائتان وسبع آيات[6] وفي المصحف المتداول عدد آياتها مائتان وست وثمانون آية.

وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان واحدى وعشرون كلمة[7].

وحروفها خمسة وعشرون ألفا وخمسمائة حرف فالله أعلم[8].

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٣٢ وتفسير ابن كثير ١/٣٥.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٥ وتفسير القرطبي ص ١٣٢.
(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٥.
(٤) تفسير القرطبي ص ٣٤ و ص ١٣٢.
(٥) تفسير القرطبي ص ٣٤ و ص ١٣٢.
(٦) تفسير ابن كثير ١/٣٥ وجاء في تفسير الخازن ١/١٩: «وهي مائتان وست وقيل وسبع وثمانون آية».
(٧) تفسير ابن كثير ١/٣٥ في تفسير الخازن ١/١٩ ومائة بدلاً من مائتين.
(٨) تفسير ابن كثير ١/٣٥ وتفسير الخازن ١/١٩.

وفي مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان[1] وروي مسلم عن أبي أمامه الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إقرؤا سورة البقرة فإن أخذها بركة. وتركها حسرة. ولا يستطيعها البطلة. قال معاوية: بلغني أن البطلة السحرة[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٢ وانظر تفسير القرطبي ص ١٣٢.

(٢) تفسير القرطبي ص ١٣٢.

القرآن هدى للمتقين

بتفسيرنا للآيات الكريمات من سورة البقرة، من أولها إلى نهاية الآية التاسعة والثلاثين، نستطيع أن نتبين هدفاً سامياً تهدف إليه الآيات الكريمات وهو تقرير الحقيقة القائمة من كون القرآن الكريم الذي أنزله رب العالمين على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي كان خُلُقه القرآن، كون القرآن الكريم هدى للمتقين. وقد بينت السورة صفات المتقين الذين يمثلون أعلى درجات الإيمان، فالمتقون هم المؤمنون حقاً. ويبقى وراء ذلك فريقان يجمع بينهما الكفر. الفريق الأول الذّي يعلن الكفر وهو الفريق السابق ظهوراً. والفريق الثانى الذى يبطن الكفر، وهو فريق المنافقين المتأخر ظهوراً. وقد تحدثت السورة الكريمة عن أهم صفات الفريقين بقصد أن يتخلصا من تلك الصفات وأن يتحولا مسلمين لله رب العالمين مؤمنين متقين. وبذلك يشمل الحديث عن هذه الفئات الثلاث كل الناس. ومن ثم وجدنا الآيات الكريمة تتحول إلى مخاطبة كل الناس وذلك في الآية الكريمة الحادية والعشرين بعد أن كان من نصيب المؤمنين المتقين أربع آيات (٢-٥) ومن نصيب الكافرين آيتان (٦، ٧) ومن نصيب المنافقين ١٣ آية، تمام عشرين آية مع مطلع السورة «الم».

وبتدبرنا للركيزة التي اعتمدت عليها الآية الكريمة الحادية والعشرون في مخاطبتها كل الناس، وأمرها لهم أن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له يتبين أنها ركيزة الخلْق «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون» وبالاضافة إلى التركيز على صفة التقوى التي تريد الآية الكريمة من كل الخلق أن يرقوا إليها، فإن الآية الكريمة تشير إلى خَلْق المخاطبين والسابقين معاً. وفي الاشارة إلى السابقين اشارة ضمنية إلى أن المخاطبين لا حقون بالسابقين فعليهم أن يؤمنوا بالله تعالى ويصدقوا برسوله الكريم الذي أنزل عليه القرآن العظيم وأن يؤمنوا باليوم الآخر لأن القادر على الخلق ابتداءاً قادر على الخلق عودة. ثم يتحول السياق إلى خلق السماوات والأرض. وهم إن كانوا في ريب من القرآن الكريم فليجتهدوا في الإتيان بسورة من مثله، وبما أنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا فعليهم أن يؤمنوا وأن يجتهدوا كي يصلوا إلى مرحلة التقوى. ثم يتحدث السياق عن أهم نعوت الجنة.

ومن مظاهر رحمة الله تعالى ضرب الأمثال، لأن العالِمين يعقلونها، أما الكافرون بنوعيهم، فهم لا يعقلونها، لأنهم فاسقون، ويستمر السياق في وصف أهم مظاهر فسق القوم. لقد كان الأولى بالقوم أن يستخدموا عقولهم كما استعملها المؤمنون العالمون، لأنهم سينتهون حتماً إلى أن الذي أحياهم في الأرحام بعد موت العدم في الأصلاب، قادر على أحيائهم يوم القيامة بعد أن يذوقوا في الدنيا الموتة الأولى. ويستمر الحديث في مسألة الخلق محور هذه المجموعة الكريمة من الآيات، فيتم الحديث عن خلق ما في الأرض جميعاً من أجل الإنسان أساساً، وعن خلق آدم عليه السلام الذي أراد الله تعالى له أن يكون خليفة في الأرض فخصه بنعمة العلم والاستعداد لأن يتعلم، وأسجد له الملائكة المقربين وبسبب عصيان آدم وحواء لأمر الله تعالى بأن أكلا من الشجرة قيل لهما أهبطا في الأرض وقبل الله تعالى توبتهما. وبيّن رب العزة بأن من تبع هداه جل وعلا من المرسلين وأنبياء وآيات على أيديهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأولئك أصحاب الجنة التي ينال فيها المتقون أعلى الدرجات. أما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله تعالى فأولئك الذين يخافون ويحزنون، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. وبهذا يتبين الهدف السامي جلياً بأن يتحول الكافرون بأنواعهم مسلمين مؤمنين متقين. وإن الذي يهدى الناس إلى التقوى وينير لهم طريق التقوى هو الكتاب العزيز الذي لا ريب فيه. وبهذا يتبين الرباط بين الآيات. وهو من مظاهر إعجاز القرآن الكريم.

بنو إسرائيل

بعد الحديث عن نوعين من الكافرين، هم المشركون والمنافقون، يتحول السياق إلى نوع آخر من الكفر وهو الغالب على كثير من أهل الكتاب، وعماد هؤلاء بنو اسرائيل. لقد دخل بنوا اسرائيل في الخطاب: «يا أيها الناس» ولكن بما أنهم أهل كتاب سماوي فقد وجه إليهم خطاب بصفة خاصة. فالمطلوب منهم أن يذكروا نعمته جل وعلا عليهم، وأن يفوا بعهده الذى أخذ عليهم، والذي يشمل جميع أوامره جل وعلا ونواهيه ووصاياه. فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ. تلا ذلك النص على أمرهم بالايمان بالقرآن الكريم، لأنهم أهل كتاب، والعجيب أنهم كانوا أول كافر به. ويرتبط بذلك الايمان

مجموعة من التكاليف تنتهي بهم إلى التقوى. وقد أردف ذلك ببيان عدد كبير من نعم الله تعالى على بنى اسرائيل كالانجاء من آل فرعون، وإغراقهم ثم كانت مواعدة الله موسى عليه السلام أربعين ليلة وفي تلك الأثناء عبدوا العجل، ثم تابوا وقبل الله تعالى توبتهم. وعاد موسى عليه السلام بالتوراة وهي من أكبر نعم الله تعالى على بني اسرائيل لأن فيها هدى ونوراً ثم طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله تعالى عياناً، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم من الله تعالى عليهم بإحيائهم لعلهم يشكرون. وفي التيه رغم ظلمهم أنفسهم برفضهم دخول مدينة الجبارين، ظلل الله عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى. ولم يقوموا بما يجب عليهم كفاء نعم الله تعالى عليهم. ومن ذلك انفجار الاثني عشرة عيناً بإرادة الله تعالى وقد ضرب موسى عليه السلام في التيه بايحاء من الله تعالى الحجر بعد أن استسقاه قومه. وبعد أن أزال الله تعالى عنهم غمّه التيه أباح لهم أن يدخلوا القرية، وطلب منهم أن يدخلوا الباب سجداً وأن يسألوا الله تعالى أن يحط عنهم ذنوبهم، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فاستحقوا الرجز من السماء بما كانوا يفسقون.

ومن سمات بني اسرائيل أنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، فهذا ما فعلوه في التيه حينما قالوا لموسى عليه السلام لن نصبر على طعام واحد وهو المن والسلوى وطلبوا منه أن يدعوا ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. وبسبب عصيانهم وكفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب منه جلا وعلا. وقد نصت الآية الكريمة الحادية والستون على مجموعتين من الصفات السيئة لبني إسرائيل، مترتب عناصر كل منهما على بعض: أولاهما عصيانُ فكفر بآيات الله تعالى فضرب الذلة والمسكنة عليهم. وثانيتهما اعتداء فقتلهم الانبياء بعير حق فرجوع بغضب منه تعالى وبعد تقرير أهم مقومات الايمان، ابتداء بالايمان بالله تعالى، وانتهاءاً بالايمان باليوم الآخر، يتحول السياق إلى محاسبة بني اسرائيل وفق مقومات الايمان هذه. إنهم بعد أخذ الميثاق منهم ورفع الطور فوقهم وقبولهم الأخذ بتعاليم التوارة، يتولون، ويتفضل الله تعالى عليهم بقبول توبتهم المرة بعد المرة وأحياناً يكون الأخذ شديداً ومن ذلك أنهم يعتدون في يوم السبت، فيمسخهم الله تعالى قردة

خاسئين . ويتجلى حمق بني اسرائيل وسوء ظنهم بنبيهم موسى عليه السلام في قصة البقرة التي أمرهم الله تعالى بذبحها على لسان نبيهم . إنهم يسألون عن سِمنّ البقرة وعن لونها وعن عملها ! أنهم شددوا فشدد الله تعالى عليهم . وببعْض هذه البقرة الميته المذبوحة يضرب القتيل فيحيا بإرادة الله تعالى ، وفي ذلك دليل عملي على البعث بعد الموت وقدرته جل وعلا على ذلك . لقد كانت تلك المعجزات الباهرات كافية لجعل قلوب بني اسرائيل خاشعة ، والعجيب أنها كانت قاسية كالحجارة بل هي أشد قسوة والعياذ بالله !

ويتحول الخطاب إلى المؤمنين الذين يطلب منهم ألا يطمعوا في إيمان بني اسرائيل بالقرآن الكريم والرسول العظيم ، لأن التوراة ذاتها قد حرفوها إضافة إلى تكذيبهم لموسى عليه السلام نفسه وقتلهم الأنبياء بغير حق . هذا إلى نفاقهم . وبعد أن كان الحديث عن الخاصة تحول إلى العامة الذين لا يعلمون التوراة إلا مجموعة من الأماني القلبية والنفسية . وبلغت جراءة علمائهم في تحريف التوراة التي عقلوها أنهم كانوا يكتبون بأيديهم ما يعلمون أنه محض افتراء من أجل حطام الدنيا .

ومن هذه الأماني زعمهم أن النار لن تمسهم ألا أياماً معدودة وقد أكذبهم الله تعالى ، ثم هم ينقضون العهود والمواثيق ابتداءاً بعهدهم مع الله تعالى بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له . ثم هم يؤمنون ببعض التوراة فقط ومن مظاهر ذلك تكذيبهم من شاءوا من الرسل وقتلهم من شاءوا منهم . لقد كذبوا محمداً ﷺ وهموا بقتله وكفروا بالقرآن الكريم فاستحقوا لعنة الله تعالى عليهم ، لأن كفرهم كان بدافع الحسد والبغي . وكيف يؤمنون بالقرآن إذا كانوا يكفرون بالتوراة التي يزعمون أنهم يؤمنون بها . والحقيقة أنهم كافرون بها ، لأنها لا تبيح لهم قتل الأنبياء مثلاً . وهم قد عبدوا العجل الذى أشربت قلوبهم حبه . ووراء ذلك هم أشد خلق الله تعالى حباً للدنيا . رغم أمانيهم بأن الجنة خالصة لهم . إنهم أحرص على حياة من الذين أشركوا فضلاً عمن سواهم والمعروف أن المشركين يعتبرون هذه الحياة نهاية المنى .

ومن الأسباب الواهية التي يتعللون بها في عدم الإيمان بالقرآن الكريم هو أن جبريل عليه السلام رسول الله إلى محمد ﷺ وجبريل حسب زعمهم عدوهم، والحقيقة أنهم أعداء لله تعالى لهذا هم يعادون جبريل عليه السلام ومحمداً ﷺ .

وحينما لم يتبع اليهود الكتب السماوية ووحي السماء اتبعوا ما تتلوالشياطين على عهد ملك سليمان من كتب السحر والشعوذة. إن الأولى ببنى اسرائيل أن يؤمنوا بالقرآن الكريم وبالرسول العظيم وأن يتقوا فإن في ذلك مثوبة من عند الله لو كانوا يعلمون. ويلاحظ حرص القرآن الكريم أن يصل القوم بعد الايمان إلى درجة التقوى أعلى الدرجات.

ومن مظاهر خبث بني اسرائيل لحن القول في الشرور والآثام حيث إنهم يقولون له ﷺ راعنا بمعنى اسمعنا لا سمعت. ولهذا نهت السورة الكريمة المؤمنين، سدًّا للذريعة، عن هذا القول الذي يوجهونه إليه ﷺ بحسن نية قاصدين لمعناه الحسن. وتبين السورة الكريمة السبب لموقف اليهود المناوىء للدعوة، إنه الحسد والكفر. وبعد أن تبين السورة الحكمة من النسخ تأمر المسلمين بالاذعان لأوامره تعالى. فالله تعالى يعلم وهم لا يعلمون. ثم تحذرهم السورة من نوايا الكثير من أهل الكتاب الذين يودون لو يرتد المؤمنون كفاراً حسداً من عند أنفسهم. والمطلوب من المؤمنين أن يعفوا ويصفحوا.

ومن حماقات أهل الكتاب أمانيهم بأنهم وحدهم الذين يدخلون الجنة. ويطلب من اليهود والنصارى الدليل ولا دليل ويبين القرآن الكريم وجه الحق في هذه المسألة وذلك في الآية (١١٢) : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ويلاحظ أن مثل هذه الآية عماد الحديث في السورة مستقبلاً عن إبراهيم عليه السلام والإسلام والمسلمين.

ثم إن كلا من اليهود والنصارى يزعمون أن الفريق الآخر ليس على شيء يصح أن يعتد به. وهذا معناه أن كلا من اليهود والنصارى، وفق رأي الفريق الآخر، في النار.

وهذا معناه أن أحداً لن يدخل الجنة ! لأن كلا من الفريقين يقول عن الآخر مثل قول المشركين : ليسوا على شيء . بل إنّ أهل الكتاب ليتعاونون مع المشركين ضدّ الفريق الآخر من أهل الكتاب .وتورطت كل الاطراف في الزعم بأن الله تعالى اتخذ ولداً . لقد أرسل الله تعالى المصطفى ﷺ بشيراً ونذيراً ولا يسأل عن أصحاب الجحيم لأن عليه البلاغ فقط بدعوة التوحيد . وهنا تحذر السورة الكريمة المؤمنين من اتباع أهواء اليهود والنصارى الذين لايرضيهم سوى أن يرتد المسلمون عن دينهم مع أن كلاً من التوراة والإنجيل ينص على رسالة محمد بن عبد الله ﷺ . وعوداً على بدء يُخاطب بنو اسرائيل ويطالبون بأن يذكروا نعم الله تعالى وآلاءه بما يجب عليهم تجاه شكر الله تعالى عليها . وتنص آخر الآيات على صفة التقوى التي ابتدأت بها السورة الكريمة .

إبراهيم عليه السلام المسلم لله رب العالمين

إبراهيم عليه السلام الذى سمانا المسلمين من قبل ، اختبره الله تعالى بمجموعة من الأوامر والنواهي فنجح فيها فجعله الله تعالى للناس إماماً . وطلب عليه السلام الإمامة لذريته فمنحها الله تعالى للمسلمين ومنعها الظالمين وجعل الله تعالى البيت الحرام مثابة للناس وأمناً وأمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلي وعهد الله تعالى إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت الحرام . ودعا إبراهيم الله تعالى أن يجعل البلد الحرام آمناً وإن يرزق المؤمنين من أهله من الثمرات فاستجاب الله دعاءه فمنحها المؤمنين والكافرين بقصد أن يرعوى الأخيرون إلى طريق الهدى والفلاح . ويلاحظ هوان الدنيا على الله تعالى حيث قد رزق المؤمن والكافر في بلده الحرام بينما جعل الإمامة مقصورة على غير الظالمين .

وتسجل السورة الكريمة قصة بناء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام القواعد من البيت العتيق ، ودعاءهما الله تعالى أن يكونا مسلمين لله تعالى ومن ذريتهما أمة مسلمة لله تعالى وأن يريهما عز وجل مناسكهما ويتوب عليهما وأن يبعث في ذريتهما رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إن إبراهيم عليه السلام جاء

بالحنيفية السمحة ملة الإسلام التي أرسل الله تعالى بها كل الرسل. وقد وصي بهذه الملة إبراهيم بنيه ويعقوب. وتردّ السورة على اليهود والنصارى الذين يذهبون إلى كون إبراهيم عليه السلام يهودياً في عرف اليهود ونصرانياً في عرف النصارى. وتجاوز اليهود والنصارى هذا الزعم إلى مخاطبة المسلمين بأن يكونوا هودا أو نصارى وكان الجواب من الله تعالى: «بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» ويطلب من المسلمين أن يقولوا آمنا بالله وبكل كتبه وكل رسله. والمطلوب من اليهود والنصارى أن يكونوا على هذا النوع من الايمان لأنه هو صبغة الله ولا أحد أحسن من الله صبغة. ويطلب من المسلمين يقولوا لأهل الكتاب بأنا نفترق عنكم في كوننا مخلصين العبادة لله وحده لا شريك له. ويصر اليهود والنصارى على الزعم بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى رغم علمهم بكونهم يكتمون شهادة الله تعالى بكونهم حنفاء مسلمين لله رب العالمين وليسوا يهودا أو نصارى.

ويختم الجزء بالآية الكريمة الحادية والأربعين بعد المائة وهي ذات الآية الكريمة الرابعة والثلاثين بعد المائة وفيها النص على المسئولية الكاملة لكل فرد أمام الله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون ألا من أتى الله بقلب سليم. قال تعالى: «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون».

الٓمٓ ﴿١﴾

اختلف العلماء في الحروف التي في أوائل السورة فمن هؤلاء من ذهب إلى كون هذه الحروف من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه. وإلى هذا الرأي ذهب على سبيل المثال القرطبي[1] وأبو حيان[2] ومن ثم فتفسير هؤلاء لهذه الحروف يكون في مثل القول: الله أعلم بمراده بذلك[3] ومن هؤلاء من ذهب إلى وجوب الكلام فيها وتلمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها[4] وكان لهؤلاء العديد من الآراء، منها أن هذه الحروف في مطالع السور امتداد للتحدى بالقرآن الكريم وذلك بالتنبيه إلى كون القرآن الكريم المعجز، منظوماً من ذات الحروف التي ينظم بها العرب قولهم شعراً ونثراً. فلا ينبغي أن يسبق إلى ظن أحد أن القرآن الكريم إنما عجز الجميع عن الاتيان بسورة واحدة من مثله، لأن مادته اللفظية غير المادة التي يؤلف العرب منها كلماتهم وجملهم. ان الحروف هي الحروف. وإن الكلمات هي الكلمات ولكن النظم غير النظم.

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٣٤ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٥ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير القرطبي ص ١٣٤ والبحر المحيط ١ / ٣٥ يرى أبو حيان أن هذا هو رأي الجمهور.

المتقون

بعد مطلع السورة الكريمة «الـم» تحدثت السورة عن الكتاب العزيز، رفيع المنزلة، باعتباره قوام هدية المتقين. ثم نصت الآيات الكريمات على أهم نعوت هؤلاء المتقين، والذين استفادوا هذه النعوات من القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى على عبده محمد بن عبدالله ﷺ، وقد بين الله تعالى له معاني القرآن الكريم كي يبينها للناس. فالمصطفى ﷺ إذن إمام المتقين.

ومن أهم صفات هؤلاء المتقين أنهم يؤمنون بكل الغيب الذي جاءهم عن المصطفى ﷺ قرآناً يتلى أو سنُة مطهرة تروى. ثم هم يقيمون الصلاة ويداومون على أدائها كاملة لأنها عماد الدين، وعماد العبادات البدنية. ثم هم يؤتون الزكاة، وهي عماد العبادات المالية، كما أنهم ينفقون في كل أوجه البر، في السراء والضراء، دون تبذير ودون تقتير. وبالاضافة إلى إيمانهم بالقرآن الكريم، هم يؤمنون بكل الكتب السماوية السابقة. كما أنهم يوقنون بالآخرة، ومن ثم هم يعملون وفق علمهم اليقيني عن الآخرة ومتعلقاتها، علماً بأنها كلها من باب الإيمان بالغيب. وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّ أول نعوتهم في السورة الكريمة أنهم يؤمنون بالغيب.

وإن هؤلاء المتقين المهتدين، سيؤتيهم الله تعالى تقواهم وسيزيدهم هدى في هذه الحياة الدنيا إلى هداهم كما أن الفلاح والفوز من نصيبهم في الآخرة، «يوم لا ينفع مال ولا بنون، ألّا من أتي الله بقلب سليم».

﴿٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ

ذلك اسم إشارة يدل على البعد[١] وكأن ثمة تنبيها إلى المنزلة العالية لهذا الكتاب العزيز. وقيل المعنى هذا الكتاب[٢] وهو مبتدأ. والكتاب مصدر من كتب يكتب إذا جمع ومنه قيل كتيبة لاجتماعها[٣] والكتاب هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أو متفرقة. وسمي كتاباً وإن كان مكتوباً[٤] والمراد بالكتاب القرآن الكريم. والمعنى أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأنّ ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص وأنه الذى يستأهل أن يسمى كتاباً كما تقول: هو الرجل أي الكامل في الرجولية الجامع لما يكون في الرجال من مرضيّات الخصال[٥].

والريب: الشك والتهمة[٦] ومعنى لا ريب فيه: لا شك فيه أنه من عند الله[٧] وحقيقة الريب قلق النفس[٨] ونفي الريب يدل على نفي الماهية، أي ليس مما يَحُلّه الريب ولا يكون فيه[٩] والوقف على فيه هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفاً على ريب[١٠].

وجملة النفي خبر المبتدأ ذلك[١١] وهدى خبر ثان[١٢] والهدى مصدر[١٣] وهو في كلام العرب معناه الرشد والبيان. أي فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان[١٤] والهدى: الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلالة في مقابلته. قال الله تعالى:

---

(١) البحر المحيط ١/٣٢
(٢) تفسير القرطبي ص ١٣٦
(٣) تفسير القرطبي ص ١٣٨
(٤) تفسير القرطبي ص ١٣٨
(٥) الكشاف ١/٨٥
(٦) تفسير القرطبي ص ١٣٨
(٧) الجلالين
(٨) البحر المحيط ١/٣٣
(٩) البحر المحيط ١/٣٧
(١٠) الكشاف ١/٨٨
(١١) الجلالين
(١٢) الجلالين وانظر تفسير القرطبي ص ١٣٩ الذي ذهب إلى كون هدى مبتدأ والخبر فيه.
(١٣) الكشاف ١ / ٨٩
(١٤) تفسير القرطبي ص ١٣٩.

«أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى». وقال تعالى : «لعلى هدى أو في ضلال مبين»[1].

وخص الله تعالى المتقين بهدايته وان كان هدى للخلق أجمعين تشريفاً لهم، لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه[2] وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُبَيًّا عن التقوى فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم. قال فماذا عملت فيه؟ قال: تشمرت وحذرت. قال: فذاك التقوى[3].

---

(١) الكشاف ١ / ٨٩.
(٢) تفسير القرطبي ص ١٤٠.
(٣) تفسير القرطبي ص ١٤٠.

﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ

من صفات المتقين الإيمان بالغيب وإقام الصلاة ومما رزقهم الله تعالى ينفقون من الطيبات .

يؤمنون يصدقون . والايمان في اللغة التصديق . وفي التنزيل : «وما أنت بمؤمن لنا» أي بمصدّق(١) وأصله من الأمن أو الأمانة ومعناهما الطمأنينة(٢) وهو يتعدى بالباء واللام كما قال : «ولا تؤمنوا ألا لمن تبع دينكم» . « فما آمن لموسى »(٣) .

والغيب في كلام العرب كل ما غاب عنك(٤) والمراد هنا ما غاب عنهم من البعث والجنة والنار(٥) وكل ما اخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط السّاعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان(٦) ...

وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها في أوقاتها(٧) قال عمر رضي الله عنه : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه . ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع(٨) .

رزقناهم : أعطيناهم(٩) واسناد الرزق إلى نفسه (جل وعلا) للإعلام بأنهم ينفقون الحلال الطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمي رزقاً منه وأدخل من التبعيضية صيانةً لهم وكفّاً عن الإسراف والتبذير المنهى عنه(١٠) .

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٤١ .
(٢) البحر المحيط ١/٣٨ .
(٣) تفسير القرطبي ص ١٤١ والبحر المحيط ١/٣٨ .
(٤) تفسير القرطبي ص ١٤٢ .
(٥) الجلالين .
(٦) تفسير القرطبي ص ١٤٢ .
(٧) تفسير القرطبي ص ١٤٣ .
(٨) تفسير القرطبي ص ١٤٣ .
(٩) تفسير القرطبي ص ١٥٤ .
(١٠) الكشف ١/١٠١ .

ومع أن الصلاة تعني هنا أساساً الصلوات الخمس المفروضة، فإنها وراء ذلك تشمل النوافل.

ومع أن النفقة هنا تعني أساساً الزكاة المفروضة، فإنها وراء ذلك تشمل كل أنواع النفقة في كل أوجه البر، دون تبذير أو تقتير.

والملاحظ بشأن ترتيب هذه الأمور الثلاثة أن الايمان بالغيب لازم للمكلف دائماً. والصلاة لازمة في أكثر الأوقات. والنفقة لازمة في بعض الأوقات. وهذا من باب تقديم الأهم فالأهم[1] وقيل: الإيمان بالغيب حظ القلب. وإقام الصلاة حظ البدن. ومما رزقناهم ينفقون حظ المال. وهذا ظاهر[2].

---

(١) البحر المحيط ١/٤١.

(٢) تفسير القرطبي ص ١٥٦.

﴿٤﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

ومن صفات المتقين كذلك أنهم يؤمنون بما أنزل إلى المصطفى ﷺ من قرآن مجيد، وما أنزل من قبله عليه الصلاة والسلام كالتوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام. والإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام. كما أنهم بالآخرة هم يوقنون، ولذلك هم يعملون وفق علمهم اليقيني بأن بعد الموت بعثاً فحساباً ثواباً أو عقاباً.

إن هؤلاء المتقين، بالاضافة إلى ما أنزل الله تعالى على محمد بن عبد عبد الله ﷺ، هم يؤمنون بالكتب السابقة، بخلاف ما فعله اليهود والنصارى. وقد قال تعالى عن اليهود[1]: «وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم. قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين» وقال تعالى عن اليهود والنصارى[2]: «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب. كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم. فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون».

واليقين: العلم دون الشك[3] والايقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه[4].

---

(١) سورة البقرة ٩١.
(٢) سور البقرة ١١٣..
(٣) تفسير القرطبي ص ١٥٧.
(٤) الكشاف ١ / ١٠٥.

ويلاحظ أن التعبير بالإيمان جاء في حق القرآن الكريم وفي حق الكتب السماوية السابقة . بينما جاء التعبير بالايقان عن الآخرة . لأن القرآن الكريم مشاهد، وأن الكتب السماوية في حكم المشاهدة كذلك، أما الآخرة فهي من الغيب، وبسبب ما يرتبط بها من أحوال عجيبة وأمور غريبة، مما يعتبر الإيمان بها دليلاً كبيراً على عمق الإيمان، عبرت الآية الكريمة عن الايمان بالآخرة بالإيقان. بل ان الأمر تجاوز هذا الحد إلى المستوى الرفيع الذى ليس وراءه وراء حينما جاء اسم الضمير « هم » المؤكد لذلك الإيقان. « وبالآخر هم يوقنون » .

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

أولئك : إسم إشارة للجميع يشترك فيه المذكر والمؤنث[1] والفلح أصله في اللغة الشق والقطع. فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه[2].

هذه الآية الكريمة يتوج بها الحديث عن المتقين. وهي تشير إليهم باسم الإشارة «أولئك» الذي يفهم منه الرتبة القصوى[3] وقد عمق هذا المعنى باستعمال حرف الجر على الذى يفيد الاستعلاء. ومعنى الاستعلاء في قوله: « على هدى مَثَّلُ لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به. شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل »[4] وإن لفظة الرب التي تفيد تربية الله تعالى هؤلاء العباد بنعمة وآلائه كفاء شكرهم نعمه جل وعلا بعمل الصالحات، تشيع شذاً رضا الله تعالى عن هؤلاء المتقين الذين يسدد رب العزة خطاهم في هذه الحياة الدنيا دائماً، وإن الفلاح سيكون بإذنه تعالى نصيبهم في الحياة الآخرة. وذلك كله ثمرة رضا الله تعالى عنهم في الأولى والآخرة. وانظر إلى اسم الضمير في القول «من ربهم» المعمق لشذا الانعام والامتنان.

قال تعالى: «الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ».

---

(١) البحر المحيط ١/٤٢.

(٢) أنظر تفسير القرطبي ص ١٥٨.

(٣) أنظر البحر المحيط ١/٤٣.

(٤) الكشاف ١/١٠٩.

الكافرون

بعد أن تحدثت السورة الكريمة في مطلعها عن المتقين، الذين يمثلون أعلى درجات الإيمان، وعن جزائهم في الدنيا والآخرة، تحدثت – ابتداءاً – عن نوعين من الكافرين. الكافرين الذين أظهروا الكفر. والكافرين الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان وهم المنافقون. وعن العذاب الأليم الذي ينتظر كلا من الفريقين.

وكان الحديث في آيتين كريمتين عن الكافرين الذين أعلنوا الكفر والمختلفين تماماً عن المتقين في الصفات، من ذات زاوية الحديث عن المتقين، أعنى القرآن الكريم، الذي نزل به رسول من الملائكة كريم على رسول من البشر كريم. إن المؤمنين المتقين إذا كانوا قد آمنوا بالقرآن الكريم، وبالرسول العظيم، فإن الكافرين كفروا بهما فزادهم الله تعالى في الدنيا عمى عين وبصيرة على عمى، وختم قلب وسمع على ختم. ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

الكفر ضد الإيمان، وهو المراد في الآية[1] وسواء عليهم معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه، أي سواء عليهم هذا[2] والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء[3] والإنذار : إعلام مع تخويف[4] .

سبب النزول

قال ابن عباس والكلبي : نزلت في رؤساء اليهود منهم حيي بن أخطب وكعب بن الاشرف ونظراؤهما[5] .

إن المؤمنين المتقين إذا كانوا قد آمنوا بأن القرآن الكريم رب العالمين، وأن محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأطاعوا الله تعالى ورسوله الكريم، فإن الكافرين الذين حقت عليهم كلمة العذاب، والذين شملهم قوله تعالى[6] : « وتمت كلمة ربك لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين » لا يؤمنون بأن القرآن الكريم كلام رب العالمين، ولا يؤمنون بأن محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ومن ثم يستوى إنذار المصطفى ﷺ لهم بالقرآن وعدم إنذارهم به. وقد أشارت الآية الكريمة التالية إلى موقفهم من الدعوة إلى صراط العزيز الحميد وإلى العذاب العظيم الذى يستحقونه يوم القيامة.

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٥٩ .
(٢) تفسير القرطبي ص ١٦٠ .
(٣) الكشاف ١/١١٧ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير القرطبي ص ١٦٠
(٦) سورة هود ص ١١٩ .

﴿٧﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

الختم : التغطية على الشيء، والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء.

ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه ولا يوضع فيه غير ما فيه[١] وقد استعير الشيء المحسوس للشيء المعقول[٢] والغشاوة : الغطاء[٣] فالختم على القلوب عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته . وعلى السمع، عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعوا إلى وحدانيته. وعلى الابصار عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته. هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم[٤].

والملاحظ أن الختم من نصيب القلوب والأسماع. وأن التغطية من نصيب الأبصار. وقد وحد السمع لأنه مصدر يقع للقليل والكثير[٥] وقدم السمع على البصر دليلاً على فضل السمع لتقدمه عليه[٦] والبصر نور العين وهو ما يبصر به الرَّائي ويدرك المرئيات، كما أن البصيرة نور القلب، وهو ما به يستبصر ويتأمل[٧] ويلاحظ تكرير حرف الجر «على» بشأن الختم على السمع وعدم الاستغناء عنه وذلك دليل على شدة الختم في الموضعين، على القلوب وعلى الاسماع[٨] وقدمت القلوب على السمع من باب التقديم بالشرف[٩].

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٦١ .
(٢) البحر المحيط ١/٤٨ .
(٣) تفسير القرطبي ص ١٦٦ والجلالين والكشاف ١/١١٩ والبحر المحيط ١/٤٦ .
(٤) تفسير القرطبي ص ١٦٢ .
(٥) تفسير القرطبي ص ١٦٥ .
(٦) تفسير القرطبي ص ١٦٥ .
(٧) الكشاف ١/١٢٦ .
(٨) أنظر الكشاف ١/١٢٥ .
(٩) البحر المحيط ١/٤٩ .

وقد وصف عذاب هؤلاء الكافرين بأنه عظيم. والفارق بين العظيم والكبير أن العظيم نقيض الحقير. والكبير نقيض الصغير. فكان العظيم فوق الكبير. كما أن الحقير دون الصغير[1] وقد نكر كل من الغشاوة والعذاب ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعاً من الأغطية غير ما يتعارفه الناس. وهو غطاء التعامي عن آيات الله. ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه ألا الله[2].

---

(١) الكشاف ١/١٢٦.

(٢) الكشاف ١/١٢٦.

﴿٨﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ

الناس : اسم جمع لا واحد له من لفظه . ومرادفه أناسي جمع إنسان أو انسي[1] وأصل ناس أناس حذفت همزته تخفيفاً... وحذفها مع لام التعريف كاللازم، لا يكاد يقال الأناس. ويشهد لأصله إنسان وأناس وأناسيّ وإنس . وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أي يبصرون كما سمي الجن لاجتنانهم[2] والألف واللام في الناس للجِنْس أو للعهد[3] ومن في القول «من القول» من الأسماء التي لفظها مفرد مذكر دائماً، وتنطلق عليه فروع المفرد والمذكر، إذا كان معناها كذلك. فتارة يراعي اللفظ، فيفرد ما يعود على مذكر. وتارة يراعي المعنى فيحمل عليه ...البدء بالحمل على اللفظ ثم على المعنى أولى من الابتداء بالحمل على المعنى ثم يرجع إلى الحمل على اللفظ ... و «يقول» أفرد فيه الضمير مذكرا على لفظ من. وآمناً جملة هي المقوله، فهي في موضع المفعول. وأتي بلفظ الجمع رعياً للمعنى، إذ لو راعي لفظ من قال : آمنت[4] وفي تكرير الباء في القول : «بالله وباليوم الآخر» دليل على مقصود كل ما دخلت عليه الباء بالايمان[5] واليوم الآخر يحتمل أن يراد به الوقت المحدود من البعث إلى استقرار كل من المؤمنين والكافرين فيما أعد لهم. ويحتمل أن يراد به الأبد الدائم الذي لاينقطع[6] وما في القول : وما هم بمؤمنين حجازية . وأكثر لسان الحجاز جر الخبر بالباء وجاء القرآن على الأكثر. وجاء النصب في القرآن في قوله : ما هذا بشراً . وما هن أمهاتهم[7] .

إن هؤلاء المنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، يزعمون أنهم يؤمنون بالله تعالى وباليوم الآخر. وهم بذلك يتناولون الإيمان من طرفيه المتباعدين، أول ما ينبغي الإيمان به وآخر ما ينبغي الإيمان به فالعمل وفق ذلك الإيمان. وفي إظهار الإيمان بالله وباليوم الآخر إيهام بالإيمان بالقرآن الكريم والرسول العظيم. وإن الآية الكريمة لتنفي عنهم مطلق الإيمان «وما هم بمؤمنين» والمعنى أنهم ليسوا مؤمنين بالله تعالى ولا باليوم الآخر ولا بالقرآن الكريم ولا بالرسول العظيم.

---

(١) البحر المحيط ١/٥٢ .
(٢) الكشاف ١/١٢٧ .
(٣) البحر المحيط ١/٥٣ .
(٤) البحر المحيط ١/٥٤ .
(٥) البحر المحيط ١/٥٥ .
(٦) البحر المحيط ١/٥٥ .
(٧) البحر المحيط ١/٥٥ .

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ

معنى يخادعون الله أي يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم[1] والمخادعة هنا من واحد كعاقبت اللص[2] ومخادعتهم: ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر ليحقنوا دماءهم وأموالهم ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا[3]. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: لا تخادع الله فإنه من يخادع الله، يخدعه الله ونفسه يخدع لو يشعر. قالوا: يا رسول الله وكيف يخادع الله؟ قال: تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره[4] والشعور: إدراك الشيء من وجه يدق مشتق من الشعر. والادراك بالحاسة مشتق من الشعار وهو ثوب يلي الجسد. ومشاعر الإنسان حواسه[5].

بعد أن نفت الآية الكريمة السابقة عن المنافقين صفة الإيمان، أثبتت لهم هنا صفة النفاق فهم يعلنون الإيمان كي يأمنوا على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، ويبطنون الكفر. وبذلك هم يأمنون في اعتقادهم كلا من المؤمنين والكافرين. وهم كذلك يظنون أنهم بنفاقهم يخدعون الله تعالى وكأنه جل وعلا لا يعلم سرهم ونجواهم، ويخدعون المؤمنين، بينما هم في حقيقة الأمر إنما يخدعون أنفسهم، لأنهم وان نجوا في هذه الحياة الدنيا فإنهم في الآخرة من الخاسرين، لأنهم في حقيقة الأمر إنما خدعوا أنفسهم وكادوها وذلك بايرادها موارد الهلكة والردى، دون شعور منهم بقبيح فعالهم وسوء مآلهم.

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٧٠.
(٢) الجلالين.
(٣) تفسير القرطبي ص ١٧٠.
(٤) تفسير القرطبي ص ١٧١.
(٥) البحر المحيط ١/٥٣.

﴿١٠﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ

المرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة[1] والمراد به هنا مرض الشك والنفاق والحسد والغِل والبغضاء. والأليم. المؤلم بمعنى الموجع مثل السميع بمعنى المسمع[2] والكذب: الاخبار عن الشيء على خلاف ما هو به. وهو قبيح كله[3].

ومعنى هذه الآية الكريمة أن في قلوب هؤلاء المنافقين، وقد ختم الله تعالى عليها، مرضاً، هو مرض النفاق والشك والبغضاء والخور. وقد زادهم الله تعالى بانزال المزيد من القرآن الكريم، على خاتم الأنبياء والمرسلين، ولهم في الآخرة عذاب فريد في بابه إذ أنه يجمع بين العظم، وهذا هو وصف عذاب الكافرين، وبين الايلام، لأن المنافقين بنص القرآن الكريم في الدرك الأسفل من النار ولأن الله تعالى جامع بين المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً. وإنما استحق المنافقون هذا المصير المخزي، لأنهم يسفلون الكافرين بسبب كذبهم إذ أظهروا الايمان وأبطنوا الكفر.

في سبب نزول هذه الآيات خلاف قال قوم نزلت في منافقي أهل المدينة. كعبد الله ابن أبي ابن سلول ومعتب بن قشير والجدّ بن قيس حين قالوا: تعالوا إلى خلة نسلم بها من محمد وأصحابه ونتمسك مع ذلك بديننا فأظهروا الإيمان باللسان واعتقدوا خلافه. ورواه أبو صالح عن أبن عباس. وقال قوم نزلت في منافقي أهل الكتاب وغيرهم رواه السدى عن أبي مسعود وابن عباس. وبه قال أبو العالية وقتادة وابن زيد[4].

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٧٢.
(٢) أنظر تفسير القرطبي ص ١٧٢ والبحر المحيط ١/٥٣.
(٣) الكشاف ١/١٣٦.
(٤) البحر المحيط ١/٦٠.

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٩	٩	مائتان وسبع آيات	مائتان وسبع وثمانون آية
٧٨	٨	الكريم رب العالمين	الكريم كلام رب العالمين
١٧١	٨	وبين لكن	وبيّنَ لكم
١٧٤	٥	من بعد عقلوه	من بعدما عقلوه
١٨١	٨	نقصها	نقضها
١٨٩	١٨	[illegible]	[illegible]
٢١٠	٧	ألا	إلاّ
٢١٠	٨	يقولن	يقولون

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ

إذا ظرف زمان ويغلب كونها شرطاً[1] والفساد ضد الصلاح. وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها[2] والصلاح اعتدال الحال واستواؤه على الحالة الحسنة[3].

إن هؤلاء المنافقين، حينما يقول لهم المؤمنون، لا تفسدوا في الأرض بنفاقكم، وذلك بممالأة الكافرين وإطلاعهم على أسرار المؤمنين، يكون جوابهم بأن عملهم الذى يراه المؤمنون فساداً، يرونه هم عين الصلاح، لأن فيه حسب زعمهم. صلاح ذات البين، بين المسلمين من ناحية والكافرين من ناحية أخرى. «ومعنى إنما نحن مصلحون، : أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحّضت من غير شائبة قادح فيها، من وجه من وجوه الفساد[4] وقد أخرجوا الجواب جملة اسمية «إنما نحن مصلحون» : «لتدل على ثبوت الوصف لهم. وأكدوها بإنما دلالة على قوة اتصافهم بالإصلاح»[5].

---

(١) البحر المحيط ١/ ٦٠.
(٢) تفسير القرطبي ص ١٧٦.
(٣) البحر المحيط ١/ ٦١.
(٤) الكشاف ١/ ١٣٨.
(٥) البحر المحيط ١/ ٦٥.

﴿١٢﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ

ألا حرف تنبيه واستفتاح[١] وهذه الأداة مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي، لاعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها. والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً كقوله: أليس ذلك بقادر[٢].

إن رب العزة يردّ عليهم في هذه الآية الكريمة رداً عنيفاً، مكذباً لهم، مبطلاً دعواهم بأنّهم مصلحون، مثبتاً لهم ضد ما ادعوه. إننا بصدد مجموعة من التأكيدات في الآية الكريمة، فنحن بصدد ألا، وإنّ، والضمير هم. والألف واللام التي تفيد الحصر عند بعضهم[٣] وقد جاء الرد على جهة الاستئناف وفي ذلك دلالة على السخط العظيم من الله تعالى عليهم وعلى بلاغة الرد[٤] وإذا كان ادعاؤهم قد جاء في جملة اسمية، فإن الرد عليهم جاء هو الآخر في جملة اسمية مؤكدة بأنواع من التأكيد التي عرفنا. وأداة الاستفتاح «ألا» منبهة على ما يجيء بعدها لتكون الأسماع مصغية لهذا الإخبار الذي جاء في حقهم[٥] ومن الذي يصفهم بأنهم المفسدون في الأرض؟ إنه الله تعالى عالم السّر وأخفى. وهم مع ذلك لا يشعرون بأن ما يفعلونه فساد، بل إنهم يشعرون أنه صلاح، مما هو دليل على اختلال مقاييسهم، وانتفاء الشعور الصحيح عنهم. إن من أهمل الفكر والنظر وحكم على الفاسد بأنه صالح يستحق أن ينظم في سلك من لا شعور له، ولا إدراك[٦].

---

(١) البحر المحيط ١/٦١، ٦٢.
(٢) الكشاف ١/١٣٨.
(٣) أنظر البحر المحيط ١/٦٦.
(٤) أنظر الكشاف ١/١٣٨.
(٥) البحر المحيط ١/٦٦.
(٦) أنظر البحر المحيط ١/٦٦.

﴿١٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ

وإذا قيل لهم : يعني المنافقين في قول مقاتل وغيره[1] آمنوا كما آمن الناس : أي صدّقوا بمحمد ﷺ وشرعه كما صدّق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب[2] والألف واللام في الناس للعهد أو للجنس أي كما آمن الكاملون في الإنسانية[3] والسفهاء جمع سفيه[4] وأصل السفه في كلام العرب الخفة والرقة . يقال : ثوب سفيه إذا كان رديء النسج خفيفه أو كان بالياء رقيقاً . وتسفهت الريح الشجر مالت به . قال ذو الرمة :

مشين كما اهتزت رماح تسفّهت أعاليها مر الرياح النواسم

والسفه ضد الحلم[5] والاستفهام من قبل المنافقين هنا للإنكار والاستهزاء[6] وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء واستهزاء ، فأطلع الله نبيه والمؤمنين على ذلك . وقرر أن السفه ورقة الحلوم وفساد البصائر إنما هي في حيزهم وصفة لهم[7] .

إن رب العزة يبين في هذه الآية الكريمة أن المنافقين يؤمرون بأن يؤمنوا كما آمن الناس بأن محمد بن عبد الله ﷺ رسول رب العالمين ، وأن القرآن الكريم كلام رب العالمين ، وذلك يعتبر خطوة تالية لنهيهم من ذى قبل عن الفساد في الأرض والمعروف أن التخلص من صفات السوء والتخلي عنها يسبق التحلي بالفضائل ، كما أنه يسهل لدى الحريص عليها ، فما هو جواب هؤلاء المنافقين الذين أشربت قلوبهم حب الدنيا ؟ الجواب في هيئة الانكار العنيف أن يؤمنوا كما آمن السفهاء . أما هؤلاء السفهاء في عرف عمى البصائر فإنهم أصحاب المصطفى ﷺ . ولماذا كان هؤلاء المؤمنون المتقون ، الناس في نظر من أنار الله تعالى بصائرهم ، سفهاء في نظر عمى البصائر ؟ لأنهم يتبيّنون أن هؤلاء

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٧٨ .
(٢) تفسير القرطبي ص ١٧٨ .
(٣) أنظر الكشاف ١/١٣٩ ، ١٤٠ وانظر البحر المحيط ١/٦٧ .
(٤) البحر المحيط ١/٦٢ .
(٥) تفسير القرطبي ١/١٧٨ .
(٦) البحر المحيط ١/٦٧ .
(٧) تفسير القرطبي ص ١٧٨ .

المؤمنين المتقين في مجموعهم فقراء، قد شغلهم الجهاد في سبيل الدين الذي رضيه الله تعالى لعباده عن حطام الدنيا الذي يتكالب عليه المنافقون. ومن ثم كان الصفع العنيف في الآية الكريمة للمنافقين بأنهم هم السفهاء. ويلاحظ ابتداء الرد العنيف عليهم بأداة التنبيه والاستفتاح على غرار الردّ العنيف السابق، وفي ذلك توكيد، على غرار انّ واسم الضمير هم، بالاضافة إلى الألف واللام التي استعملت في الآية الكريمة من قبل مرتين أثنتين.

ولما كان المأمور به مشبهاً كان جوابهم مشبهاً في قولهم: أنؤمن كما آمن السفهاء[1] فإن قلت: فلم فُصِلَتْ[2] هذه الآية بلا يعلمون والتي قبلها بلا يشعرون قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة. وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر والتجاذب والتحازب فهو كالمحسوس المشاهد ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له[3].

---

(١) البحر المحيط ١/٦٧.

(٢) أي جاءت فيها الفاصلة.

(٣) الكشاف ١/١٤٠ وأنظر البحر المحيط ١/٦٨ فقد بني على رأي الزمخشري وأجاد.

﴿١٤﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ

أنزلت هذه الآية في ذكر المنافقين(١) وخلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا(٢) والشياطين جمع شيطان على التكسير(٣) ولفظ الشيطنة معناه البعد عن الإيمان والخير(٤) والشيطان كُلٌّ متمرد من الجن والإنس والدواب(٥) والمراد بالشياطين هنا في رأي ابن عباس والسدى رؤساء الكفر(٦) والهزء والسخرية واللعب(٧) والاستخفاف(٨) يقال : هزىء به واستهزأ(٩) .

هذه الآية الكريمة تبين طبيعة النفاق في سلوك المنافقين تبعاً لاعتقادهم، إنهم بناءاً على اظهارهم للإيمان يقولون للمؤمنين كلاماً يوافق ما أظهروا من الإيمان . وبناءاً على ابطانهم للكفر يقولون لرؤسائهم في الكفر كلا ما يوافق ما أبطنوا من الكفر . إن هؤلاء المنافقين إذا لقوا المؤمنين « قالوا آمنا » . هكذا في عبارة بسيطة ساذجة، لأنهم ليس لديهم الحماس للإيمان الدافع لكلامهم كي يكون حماسياً حاراً . فإذا ما انصرفوا إلى شياطينهم وذهبوا إليهم قاصدين لهم، كان كلامهم من القوة والتأكيد ما يوافق حماسهم للكفر، هذا إلى أنهم يعبّرون عن الفكرة الواحدة مرتين، تبني ثانيتهما على أولاهما وتؤكدها . انهم من ناحية يجيء كلامهم مؤكداً لصحبتهم لشياطينهم في الكفر «إناّ معكم» والمعنى «إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم»(١٠) وحينما يكونون مصاحبين

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٧٩ .
(٢) تفسير القرطبي ص ١٧٩ .
(٣) تفسير القرطبي ص ١٧٩ .
(٤) تفسير القرطبي ص ١٨٠ .
(٥) البحر المحيط ١/٦٢ .
(٦) تفسير القرطبي ص١٧٩ وانظر البحر المحيط ١/٦٩ .
(٧) تفسير القرطبي ص ١٨٠ .
(٨) الكشاف ١/١٤٣ وانظر البحر المحيط ١/٦٣
(٩) تفسير القرطبي ص ١٨٠ .
(١٠) الكشاف ١/١٤٢ .

للكفار وموافقين لهم فذلك معناه أنهم مفارقون للمؤمنين مخالفون لهم. وواضح أن كلام المنافقين لشياطينهم مخالف لكلامهم المعسول للمؤمنين. وبما أن كلام المنافقين لشياطينهم مخالف لكلامهم السابق للمؤمنين، فإنهم من ناحية أخرى يجيء كلا مهم للمرة الثانية مؤكداً على غرار كلا مهم الأول: «إنما نحن مستهزئون» فإذا كان الكلام الأول تأكيداً للنفاق والكفر فإن هذا الكلام الثانى رد للإسلام. إنهم «حين لقوا شياطينهم أو خلوا إليهم قالوا إنا معكم. فأخبروا أنهم موافقوهم. وأخرجوا الإخبار في جملة اسمية مؤكدة بإنّ ليدلّوا بذلك على ثباتهم في دينهم ثم بيّنوا أن ما أخبروا به الذين آمنوا إنما كان على سبيل الاستهزاء. فلم يكتفوا بالإخبار بالموافقة بل بيّنوا أن سبب مقالتهم للمؤمنين إنما هو الاستهزاء والاستخفاف لا أن ذلك صادر منهم عن صدق وجد. وأبرزوا هذه الإخبار في جملة اسمية مؤكدة بإنما مُخْبَرٍ عن المبتدأ فيها باسم الفاعل الذي يدل على الثبوت وأن الاستهزاء وصف ثابت لهم لا أن ذلك تجدد عندهم بل ذلك من خلقهم وعادتهم مع المؤمنين»[1].

سبب النزول

قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبيّ وأصحابه. وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال عبد الله بن أبيّ: أنظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاء عنكم! فذهب فأخذ بيد أبي بكر فقال: مرحباً بالصديق سيد بني تيم وشيخ الإسلام، وثانى رسول الله في الغار، الباذل نفسه وماله. ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدى بن كعب، الفاروق القوى في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد عليّ فقال: مرحباً بابن عم رسول الله وختنه، وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله. ثم افترقوا فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت فأثنوا عليه خيراً. فرجع المسلمون إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بذلك فأنزل الله هذه الآية[2].

---

(١) البحر المحيط ١/٦٩.

(٢) أسباب النزول للنيسابوري ص ١٣.

﴿١٥﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ

قوله تعالى : الله يستهزىء بهم أي ينتقم منهم ويعاقبهم ويسخر منهم ويجازيهم على استهزائهم. فسمى العقوبة باسم الذنب. هذا قول الجمهور من العلماء. والعرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم. من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلاً. والجهل لا يفتخر به ذو عقل. وإنما قاله ليزدوج الكلام فيكون ذلك أخف على اللسان من المخالفة بينهما[1] ويمدهم أي يطيل لهم المدة ، ويمهلهم ويملي لهم. كما قال : إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً. وأصله الزيادة. قال يونس بن حبيب : يقال : مد في الشر وأمد الخير. قال الله تعالى : وأمددناكم بأموال وبنين وقال : وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون[2] وأصل الطغيان مجاوزة الحد[3] والمراد هنا الغلو في الكفر ومجاوزة الحد في العتو[4] ويعمهون : يعمون[5] والعمي في العين والعمه في القلب. وفي التنزيل : فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »[6].

في هذه الآية الكريمة يبين رب العزة أنه هو جل وعلا الذي ينتقم للمؤمنين المتقين من المنافقين المستهزئين. ان هؤلاء المنافقين يظنون أنهم باستهزائهم بالمؤمنين يحسنون صنعاً بينما هم حقيقةً الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم. وبما ان عاقبة المؤمنين الحسنى بينما عاقبة المنافقين السُّوءى[7] إن لم يتوبوا ويصلحوا ويعتصموا بالله ويخلصوا دينهم لله.

وقد صدرت الآية الكريمة بلفظ الجلالة «الله» دليلاً على أنه جل وعلا هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاماً للمؤمنين ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله[8]

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٨٠ .
(٢) تفسير القرطبي ص ١٨١ .
(٣) تفسير القرطبي ص ١٨٢ .
(٤) الكشاف ١ / ١٤٥ .
(٥) تفسير القرطبي ص ١٨٢ .
(٦) تفسير القرطبي ص ١٨٢ .
(٧) السوءي تأنيث الأسوأ بمعنى الأقبح .
(٨) الكشاف ١ / ١٤٤ .

ولم يجيء القول في صدر الآية الكريمة : « الله مستهزىء بهم » على غرار قولهم : إنما نحن مستهزئون إنما جاء القول : الله يستهزىء بهم ، « لأن يستهزىء يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت »[1] .

ومن مظاهر استهزاء الله تعالى بهم ، مقابل استهزائهم بالمؤمنين ، أن رب العزة يمدهم في طغيانهم يعمهون . فهو جل وعلا يمهلهم ويظنون الامهال أهمالاً ، ويظنون الانعام منه جل وعلا اكراماً لهم بل هو استدراج لهم حتى إذا أخذهم جل وعلا العزيز المقتدر كان أخذه أليماً شديداً . وهكذا يتبين أن المنافقين حقيقة هم موضع السخرية والهزء وليس المؤمنين الذين انتصر الله تعالى لهم بانتقامه جل وعلا من المنافقين الذين اجتمع لهم ذل الدنيا وخزى الآخرة ، بينما جمع الله تعالى للمؤمنين المتقين الحياة الطيبة في كل من الأولى والآخرة بفضله ومنّه جل وعلا «ويعمهون» جملة في موضع الحال إما من الضمير في يمدهم . وإما من الضمير في طغيانهم لأنه مصدر مضاف للفاعل[2] .

---

(١) الكشاف ١ / ١٤٤ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٧١ .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

اشتروا من الشراء. والشراء هنا مستعار. والمعنى اسحبوا الكفر على الإيمان كما قال: فاستجبوا العمى على الهدى فعبر عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه[1] ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى اختيارها عليه واستبدالها به، على سبيل الاستعارة، لأن الاشتراء فيه اعطاء بدل وأخذ آخر[2] والربح: هو ما يحصل من الزيادة على رأس المال[3] والتجارة: هي صناعة التاجر، وهو الذي يتصرف في المال لطلب النمو والزيادة[4] وأسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك. وقولهم: ليل قائم ونهار صائم. والمعنى ربحت وخسرت في بيعك. وقمت في ليلك وصمت في نهارك أي فما ربحوا في تجارتهم[5] فإن قلت: هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال، فما معنى ذكر الربح والتجارة، كأن ثم مبايعة على الحقيقة؟ قلت: هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز، ثم تقفي بأشكال لها وأخوات، إذا تلاحقن لم تر كلا ما أحسن منه ديباجة، وأكثر ماءاً ورونقاً. وهو المجار المرشح[6] ومعنى ترشيح المجاز، أن يبرز المجاز في صورة الحقيقة ثم يحكم عليه ببعض أوصاف الحقيقة فينضاف مجاز إلى مجاز[7].

إن هذه الآية الكريمة تشير إلى تمكن المنافقين التام من الهداية – لوان الله تعالى قدّرها لهم – لتوفر أسبابها، وفي مقدمة هذه الأسباب وجود المصطفى ﷺ بين ظهرانيهم ولقد آتاه الله تعالى الكتاب العزيز الذي يهدى للتي هي أقوم، ومع هذا التمكن التام من

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٨٢.
(٢) الكشاف ١/١٤٦.
(٣) البحر المحيط ١/٦٣.
(٤) البحر المحيط ١/٦٣.
(٥) تفسير القرطبي ص ١٨٣.
(٦) الكشاف ١/١٤٧.
(٧) البحر المحيط ١/٧٢.

الهداية، وكأن الهداية في إيديهم، فإنهم حباً منهم في الضلالة وإيثاراً لها على الهداية، كأنهم قد دفعوا الهدى ثمناً للضلالة. وحينما يكون الثمن المبذول الهداية، وحينما يكون الشيء المشترى الضلالة، فكيف يتوقع ربح هذا المشترى؟ إن الربح ممتنع أصلاً وإلى ذلك أشار قوله تعالى «فما ربحت تجارتهم» بل إن رأس المال وهو الهداية قد ذهب في مقابل شراء الضلالة. فإذا عرفنا أن الهداية التي كانت ممكنة في حقهم لم تكن من نصيبهم وقتاً من الأوقات، أدركنا التتميم الاعجازى في قوله تعالى: «وما كانوا مهتدين» حيث إنا نفهم أن هذه الهداية لم تكن ملكاً لهم وقتاً من الأوقات. أما الذي هو ملك لهم والذى هو باق في أيدى هؤلاء المنافقين فهو الضلالة.

وإن جو البيع والشراء، في الربح من قبل هؤلاء التجار، لأن هذا هو الهدف الأسمى للتاجر في تجارته، كل ذلك يوحي بسعى هؤلاء المنافقين الحثيث وراء الضلالة، وبذلهم كل غال ورخيص في سبيلها، وهم مع كل ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعاً لأن الله تعالى أعمى أبصارهم.

﴿١٧﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ

المَثَل والمِثْل والمثيل واحد ومعناه الشبه. والمتماثلان المتشابهان هكذا قال أهل اللغة[1] واستوقد بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب[2] والإضاءة فرط الإنارة ومصداق ذلك قوله: « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً[3] وإنما وحد الذي واستوقد لأن المستوقد كان واحداً من جماعة تولي الايقاد لهم. فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعاً فقال: بنورهم[4].

تريد الآية الكريمة هنا أن تبين الضلال البعيد الذي انتهى إليه المنافقون حينما لم يستفيدوا من نور الإيمان فغدوا في ظلام دامس. والآية الكريمة تريد أن تقرب حال هؤلاء المنافقين بضرب المثل الذي يعتبر من أهم فوائده تقريب البعيد، وتبيين المبهم، واظهار الخفى. إنّ مَثَل هؤلاء المنافقين كما تبينه الآية الكريمة وقد أظهر هؤلاء المنافقون الإيمان، فأمنوا على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، دون أن يستطيع الإيمان أن يلج إلى الأفئدة لأن كل المسارب قد سدت والأبواب قد أوصدت فغدوا في ظلام دامس، ربما كان أشد حلكة من الظلام الذي كانوا فيه من قبل أن يبصروا نور الإيمان، إنّ مَثَل هؤلاء المنافقين مثل ذلك الشخص الذى استوقد ناراً لنفسه ولقومه. وبما أن النار تنبعث من مصدرها، فإن ما يرتبط بهذا المصدر للطاقة يعتبر ضياء، لأن النار جوهر لطيف مضيء حار محرق[5] وهذا الضياء استفاد منه أول الأمر موقد النار ورفاقه. على أن قوة الضياء ارتبطت بما حول النار الموقد، بأكثر من ارتباطها بما ابتعد ونأى، فالمعروف أن ضعيف الضياء بسبب البعد أو بسبب صدوره من غير مصدره كأن يصل عن طريق ما يشبه

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٨٣.
(٢) تفسير القرطبي ص ١٨٤.
(٣) الكشاف ١/١٥٢.
(٤) تفسير القرطبي ص ١٨٤.
(٥) أنظر البحر المحيط ١/٧٥.

المرآة العاكسة للضوء، يعتبر كل ذلك نوراً لا ضياءاً. وبما أن النار مصدر ذلك الضياء قد طفئت وبما أن ما يصل القوم من ذلك الضياء ضعيف بطبعه لقلة استعدادهم لاستقبال ذلك الضياء، فقد عبر عنه في حقهم بأنه نور «ذهب الله بنورهم».

وبما أن النور في الآية الكريمة إنما هو رمز لنور الهداية، وبما أنهم لم يكونوا وقتاً من الأوقات صالحين لحسن تلقي نور الهداية ذلك، فقد استحقوا أن يعبر عن إذهاب الله تعالى ذلك النور عنهم دليلاً على غضبه عز وجل عليهم في قوله تعالى «ذهب الله بنورهم» يقال: ذهب به إذا استصحبه ... والمعنى أخذ الله نورهم وأمسكه»[1] «ولم يقل نارهم، فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، ذهب الله بما فيها من الإضاءة وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون»[2] والمعروف أن الظلام بعد ذهاب النور أشد منه قبل مجيئه. وتلك هي حال المنافقين الذين زادهم الله تعالى عمى إلى عماهم.

---

(١) الكشاف ١/١٥٤.

(٢) أمثال القرآن لابن القيم ص ١٨.

﴿١٨﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ

الصمم في كلام العرب الانسداد. يقال: قناة صمّاء إذا لم تكن مجوّفة. وصممت القارورة إذا سددتها. فالاصم من انسدت خروق مسامعه. والأبكم الذى لا ينطق ولا يفهم. فإذا فهم فهو الأخرس. وقيل الأخرس والأبكم واحد... والعمى ذهاب البصر، وقد عمي فهو أعمى، وقوم عُمْي وأعماه الله[1] قرأ الجمهور صم بكم عمي بالرفع. وهو على إضمار مبتدأ تقديره هم صم[2] ومعنى لا يرجعون أنهم لا يعودون إلى الهدى[3].

المعروف عن هؤلاء المنافقين أنهم جسدياً سمعاء الآذان فصح الألسن بصراء الأعين[4] ولكن الآية الكريمة تصف هؤلاء المنافقين بأنهم صم الآذان بكم الألسن عمي الأعين مما يفهم منه أنهم صم عن الحق فلا يسمعونه سماع قبول. بكم خرس عن الخير فلا يقولونه عمي عن طريق الهدى فلا يرونه فيهم لا يرجعون عن الضلالة[5].

وبهذا يتبين أن السماع نوعان. نوع يشترك فيه سائر سليمى هذه الحاسة. وهو السماع المجرد. ونوع ينفرد به الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وقد عطل المنافقون هذا النوع الثانى من عمل حاسة السمع. ويلاحظ ابتداء الآية الكريمة بحاسة السمع دليلاً على تقدمها على حاسة البصر مثلاً، وقد لاحظنا من قبل تقدم هذه الحاسة كذلك وذلك في القول: «ختم الله قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم» وحينما تبدأ هذه الآية بحاسة السمع فذلك معناه أن القلوب التي في الصدور قد عميت والعياذ بالله تعالى، وهي القلوب التي ذكرت الآية الكريمة السابعة السابقة.

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٨٥.
(٢) البحر المحيط ١/ ٨١.
(٣) الكشاف ١ / ١٥٩.
(٤) البحر المحيط ١/ ٨١.
(٥) الجلالين.

وعلى غرار تعطيل المنافقين العمل الرئيسي لحاسة السمع هم يعطلون العمل الرئيسي للسان بأن تكون هذه الجارحة شكراً لله تعالى ودعوة إليه لا أن تكون حرباً لله ورسوله وتحول الشكر كفراناً. وإن الشيء ذاته يقال عن حاسة البصر. إنهم يرون المحسوسات ولكنهم لا يرون الحق حقاً كي يتبعوه، ومن ثم فقد أخلت هذه الحاسة بعملها الرئيسي وهو أن ترى نور الهداية لا أن تقتصر على النور الذي يستوى في رؤيته الإنسان والحيوان.

وبما أن هؤلاء المنافقين قد سدوا منافذ الهداية، فقد غدوا محالفين للظلمات غير قادرين على الرجوع من الضلالة التي اشتروا إلى الهدى الذي أغفلوا.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ

أو للتخيير أي مثلوها بهذا أو بهذا. لا على الاقتصار على أحد الأمرين والمعنى أو كأصحاب صيب[1] والملاحظ أن المثل الأول ناري وهذا المثل الثانى مائي. فبعد أن مثلت الآية الكريمة السابقة المنافقين بالذي استوقد ناراً، مثلت هذه الآية الكريمة المنافقين بأصحاب صيب، وهو المطر[2] والمفروض أن تستفيد قلوب المنافقين من غذاء الأرواح المتمثل في قطرات غيث القرآن الكريم، فكيف بصيّبه ولكنهم هم أنفسهم لم يكونوا مستعدين لأن يستفيدوا من هذا المطر، ثم إن هذا النوع من المطر يرتبط به الكثير من الضرر في عرفهم!

وقد «شبه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات. وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق»[3] وبسبب بغض المنافقين الفطرى للقرآن الكريم والرسول العظيم، هم لا يكتفون بوضع أنامل أصابعهم في آذانهم كي يحولوا بين آذانهم وبين أن تسمع آي الذّكر الحكيم وأحاديث المصطفى ﷺ المبينة للقرآن الكريم، إنما يحاولون جاهدين أن يدخلوا كل أصابعهم في آذانهم كي يحققوا هوى النفس الأمارة بالسوء في داخلهم بطرد زواجر صواعق القرآن الكريم بعيداً عنهم كي يضمنوا عدم تسلل أي جزء من تعاليم الإسلام إلى أنفسهم خلال مسارب المعرفة. ويلاحظ أن الآية الكريمة تنزل آى الذكر الحكيم من أنفس هؤلاء المنافقين المبغضين للسماع المجرد للقرآن الكريم فضلاً عما وراء ذلك، منزلة الصواعق وليس الرعد مثلاً رغم اشتراكهما في الصوت، ولكن صوت الصواعق هو الأشد قوة وعنفاً وذلك هو فعل آى الذكر الحكيم فيهم وهذه هي الحكمة في اختيار الصواعق، خاصة وأن الأذى يرتبط بها بأكثر مما يرتبط بالرعد. إنهم يعتبرون الحياة

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٨٦.
(٢) تفسير القرطبي ص ١٨٦.
(٣) الكشاف ١/١٦١.

بالإسلام والإيمان موتاً، وبذلك يصح في حق هؤلاء المنافقين صفة الموت الحقيقي، لأن الأحياء حقيقة بنص القرآن الكريم هم الذين يحيون بتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين أما الكافرون فأموات. قال تعالى[1] «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون» وقال تعالى[2]: «لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين».

وإذا كان هؤلاء المنافقون يعتبرون ترك دينهم واعتناق دين الإسلام موتاً، وهم لا يريدون الموت وإنما يريدون الحياة، فإن رب العزة يبين أنه محيط بهؤلاء الكافرين. والاحاطة حصر الشيء بالمنع له من كل جهة[3] والإحاطة هنا كناية عن كونه تعالى لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط المحيط به. فقيل بالعلم. وقيل بالقدرة وقيل بالإهلاك[4] إنّ هؤلاء المنافقين إذا أرادوا بوضع أصابعهم في آذانهم من الصواعق أن يحذروا الموت، فإن الله تعالى الذى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء والمحيط بهم، قادر كل وقت على إماتتهم واراحة العباد والبلاد من شرورهم وآثامهم.

---

(١) سورة الأنعام ١٢٢.
(٢) سورة يس ٧٠.
(٣) البحر المحيط ١/٨٤.
(٤) البحر المحيط ١/٨٧.

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الخطف الأخذ بسرعة[1] ومعنى قاموا وقفوا وثبتوا في مكانهم[2] كان حديث الآية الكريمة السابقة من زاوية السمع غالباً، فثمة الرعد والصواعق وخوف المنافقين من صواعق آي الذكر الحكيم أن تذهب بسمعهم، كما كان الحديث من زاوية العين محدوداً حيث تمت الإشارة إلى الظلمات والبرق. أما هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها فإن حديثها عن الابصار غالباً وعن السمع قليلاً.

فهولاء المنافقون الذين يحيون في ظلمات النفاق والكفر، شديدو الحاجة لنور القرآن الكريم رغم نفورهم الفطرى منه، وكأن نوره المتتابع نزوله على خاتم الأنبياء والمرسلين، وهم الذين يعيشون في ظلمات بعضها فوق بعض، ذلك البرق الذي يتوهج ضوءه بسبب الظلمات المطبقة، ويكاد بسبب قوته وإلْف أصحاب الصيب للظلمات – والمراد بهم المنافقون – يخطف أبصار القوم الذين يتجاذبهم حبه للحاجة إليه وكرهه للنفور من تبعاته.

وهؤلاء المنافقون يسيرون في هذه الحياة وفق ضوء الإسلام الذي أظهروا اعتناقهم له، لأنه هو وحده نور الطريق وزاد الطريق، حتى إذا اقترن بذلك الضوء أدنى التبعات، التي تنزل منهم لبغضهم الفطرى للإسلام منزلة الظلمات المطلقة عليهم بسبب اظلام البرق عليهم وقد اختفي، كان من القوم ثبات وخمود، ونفور نكوص. وإلى شيء من هذه الأحوال أشار قوله تعالى من سورة محمد عليه الصلاة والسلام[3]: «ويقول الذين

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٩٢.

(٢) الكشاف ١/ ١٧٠.

(٣) الآية ٢٠، ٢١.

آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف. فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم» وقوله تعالى من سورة الأحزاب[1] : «أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً».

لقد بينت الآية الكريمة السابقة خوف المنافقين على أسماعهم أن تذهب بها صواعق آى الذكر الحكيم، وهذه الآية الكريمة تبين خوف المنافقين على أبصارهم أن يذهب بها برق آى الذكر الحكيم ذو الضوء القوى. ومع أن حاجة المنافقين ماسة للانتفاع من حاسة السمع لأجل الوعي لا من أجل السماع مجرداً، ومن حاسة البصر لأجل إبصار نور الهداية لا من أجل رؤية النور المجرد الذى تدركه العينان، ومع تعطيل المنافقين العمل الأساسي لكل من الحاستين، ومع ذلك هم يخشون ذهاب العمل البسيط لكل منهما وهما السماع والإبصار المجردان، فإن رب العزة وقد عطل المنافقون العمل الأساسي للحاستين، قادر على تعطيل العمل البسيط للحاستين ذلك العمل الذي يخشي المنافقون ذهابه ويحرصون على بقائه. إن هؤلاء الذين أعمى الله تعالى أبصارهم وأصم آذانهم يفطنون للعمل البسيط للحاستين ولا يفطنون للعمل الرئيسي لهما. ولولا رحمة البر الرحيم التي وسعت كل شيء لذهب جل وعلا بسمعهم وأبصارهم فإنه جل وعلا القدير الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

---

(١) الآيـة ١٩ .

﴿٢١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

الخلق : الاختراع بلا مثال[1] إن الحديث يتجه إلى كل الناس ، وقد عرفنا من الآيات الكريمة السابقة أن الناس ثلاثة مؤمنون متقون ، وكافرون يعلنون كفرهم ومنافقون يبطنون كفرهم ويظهرون إيمانهم . فلننظر إلى الهدف الأسمى الذي تحث الآية الكريمة جميع الناس عليه . إنه التقوى . والمعروف أن درجة التقوى تأخذ في الاتجاه صعدا حتى تساوي درجة الإحسان وتلتحم به . فإذا التقوى إحسان . وإذا الإحسان تقوى . ومعروف أن درجة الإحسان أعلى من درجتى الإسلام والإيمان ، وأن الإحسان كما بينه ﷺ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . إن هدف التقوى الذي تنص الآية الكريمة عليه ، ينبه إلى مظهر من مظاهر رحمة الرحمن الرحيم بجميع العباد ، وليت العباد يقابلون بالإحسان إحسان الله تعالى إليهم ، وذلك بعبادته جل وعلا وحده لا شريك له .

وإن لفظة الرب في الآية الكريمة المنبهة إلى تربية الله تعالى عباده بنعمة وآلائه ، لها دورها في اشاعة جو المحبة والحنان . وتختار الآية الكريمة مظهراً واحداً من مظاهر نعمه جل وعلا وقدرته ، وهو خلق الناس على غير مثال ، وتصويرهم ، وإحسان صورهم . وفي النص على خلق الله تعالى للسابقين الذين توفاهم الله تعالى إشارة إلى أن مصير جميع الخلائق واحد ، هو الموت بعد الحياة . وذلك معناه ضمنا البعث بعد الموت ، لأن القادر على الايجاد ابتداءاً ، قادر على الايجاد عودة ، نقول هذا بلغتنا نحن البشر العاجزين وإلا فإن الأمور كلها متساوية في حق الذات العلية .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٩٣ .

﴿٢٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ

إن الآية الكريمة تشير إلى بعض مظاهر نعم رب العزة على عباده وقدرته بعد أن أمرتهم الآية الكريمة السابقة بعبادة هذا الرب الواحد. وقد أشارت الآية الكريمة إلى نعمة جعل الأرض فراشاً يتقلب الناس فوقها سيراً وقياماً وقعوداً ونوماً، دون أن يجدوا في ذلك مشقة. وما خرج في هذه الأرض عن كونه فراشاً كالجبال، فهي بالإضافة إلى كونها أكناناً، قد جعلها الله تعالى للأرض بمثابة الأوتاد التي تمسك بها بإرادته جل وعلا أن تزول. وكان ابتداء الحديث عن الأرض لأن علاقة جنس الإنسان بها هو الأقوى، ثم هو يسبق علاقاته بسواها كالسماء التي جاء الحديث عنها في الآية الكريمة ثانياً. هذا إلى أن الأرض ذاتها قد خلقها الله تعالى قبل السماوات وقد وصفت الآية الكريمة السماء بأنها بناء. والمعروف أن السماء بل السموات قد رفعها الله تعالى دون عمد ودون أسس، إنما هي معلقة بيد القدرة الآلهية. وإن الأرض ذاتها كالسماوات في هذه الصفة ووصفت السماء بأنها بمثابة البناء. والمعروف أن لفظة بناء تعنى التماسك والقوة وشدة الأسره. وتلك صفات السماوات.

ثم أشارت الآية الكريمة إلى نعمة الماء، وإن وجوده والانتفاع به ثمرة التعاون بين الأرض التي جعلها الله تعالى فراشاً وبين السماء التي جعلها الله تعالى بناءاً. وقد نصت الآية الكريمة على الثمرات. وفي ذكر الثمرات ذكر ضمنى لأنواع النباتات.

أو ليس الذي خلق السماوات والأرض وجعل الحياة للإنسان ممكنة على الأرض أولى بأن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له؟ هل من اللائق بالإنسان المهيىء لأن يعلم أن يجعل لله تعالى أنداداً ونظراء لايخلقون شيئاً وهم يخلقون؟ إن ذلك لايليق فليفرد الناس خالقهم ومربيهم بنعمه وآلائه بالعبادة.

﴿٢٣﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

بعد أن دعت الآية الكريمة قبل السابقة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأقامت الآية الكريمة التالية الدليل على الواحدنية، أقامت هذه الآية الكريمة الدليل على نبوة محمد بن عبدالله ﷺ الذي أنزل الله تعالى عليه الكتاب الكريم المعجز. فلا زلنا نعيش مع الكتاب الذي لا ريب فيه والذي هو هدى للمتقين كما نصت على ذلك السورة الكريمة في أولها.

والآية الكريمة يتم فيها تحدى المشركين بأنهم إن كانوا في شك من كون القرآن الكريم أنزله الله تعالى على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد بن عبدالله ﷺ، الذي ينعته رب العزة بأشرف الخصال، وهي خصلة العبودية، في أرفع الأحوال ومنها حال إنزال القرآن الكريم عليه، فالمطلوب من هؤلاء المشركين، الذين جرى على لسانهم وقتاً من الأوقات كما جاء في سورة الأنفال[1] القول: «لو نشاء لقلنا مثل هذا» أن يأتوا بسورة واحدة فقط من مثل أقصر سوره القرآن الكريم، أي ثلاث آيات كريمات فقط. وأن يدعوا شهداءهم الذين يتعاطفون معهم ويتعاونون من آلهة يدعون من دون الله وغير آلهة، بأن يكونوا شهداء على ما يأتون به، كي تكون الحجة لهم بينة أو عليهم جميعاً دامغة، لأنهم عجزوا عن الإتيان بما أتى به شخص واحد.

وبطبيعة الحال لم يستطع أولئك المشركون أن يأتوا بمثل أقصر سور القرآن الكريم «وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم»[2] وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التالية. والملاحظ أن الآية الكريمة تستعمل جملة أتى وهي لاتجيء في القرآن الكريم ألا دليلاً على البعد[3].

---

(١) الآية ٣٠.
(٢) سورة الأنعام ١١٥.
(٣) بينا هذه الظاهرة في دراستنا مثلاً لسورة الحاقة بشأن الآية الكريمة التاسعة.

﴿٢٤﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟
ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ

القرآن الكريم معجزه بمعناه ومبناه ، والمعروف أن قبيلة قريش وهم قوم المصطفى ﷺ ، قد أتيح لهم من الأسباب البيانية والنفسية ما لم يتح لغيرهم خلال العصور ولن يتاح . لأن السليقة اللغوية ذاتها ذهبت إلى الأبد بذهاب تلك الأجيال التي عاصرت فجر الإسلام ولأن القرشيين اعتبروا النبوة مظهراً من مظاهر التنافس بين بيوتات قريش، وحينما حاول كفارهم أن يقوموا بأي عمل يقلل من شأن القرآن فشلوا حتى اضطروا إلى ترك الميدان المتفوقين فيه وهو ميدان الفصاحة والبيان إلى مجال الضرب والطعان بالسيف والسنان .

وبشأن هذه الآية الكريمة نحن أمام استمرار التحدي بالقرآن الكريم الذى ابتدأ في الآية الكريمة السابقة . وهذه الآية تبين بصريح العبارة أن هؤلاء الكافرين لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل أقصر سور القرآن الكريم ، وهم لن يستطيعوا إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل تلك السورة القصيرة الواحدة . وبذلك نحن أمام دليل بكون القرآن الكريم معجزاً بنظمه ، حيث يستحيل الإتيان بمثل أقصر سوره ، وبما يتضمن من غيوب ، حيث قد ثبت عجز الإنس والجن عن الاتيان بمثل أقصر سوره ، وقد بينا من قبل أن القرشيين يعتبرون الجماعة النموذجية خلال العصور في مجال التحدى بالقرآن الكريم . وحينما تعجز هذه الجماعة النموذجية عن قبول التحدى فذلك معناه أن التحدى بالقرآن ملازم لكل عباد الله تعالى إلى قيام الساعة .

وحينما يثبت للكافرين عجزهم من ناحية وإعجاز القرآن من ناحية أخرى ، فذلك معناه ، لو كانوا منصفين وصادقين في البحث عن الحق للإيمان به ، أن يؤمنوا بأن القرآن الكريم كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى ﷺ ليكون من

المنذرين. وفي المقابل هم يستحقون بفضل الله الجنة التي عرضها السماوات والأرض والتي أعدت للمتقين. ولكن الكافرين ركبوا رءوسهم ووقفوا من الرسول موقف العَداء وجحدوا كون القرآن الكريم كلام رب العالمين وصدوا عن سبيل الله تعالى، وبذلك هم لم يتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، وهذان الصنفان يمثلان أسهل المواد وأصعبها اشتعالاً، ولكنّهما سواء في حق تلك النار الشديدة الاشتعال الخيالية الحرارة، والتي أعدها الله تعالى للكافرين فى المقام الأول، المكذبين للرسول الكريم المنكرين للقرآن العظيم.